جماليات الرواية الصوفية في رواية سفر السالكين لمحمد مفلاح

the aesthetics of sufism nouvel in safar e ssalikin to mohamed meflah

عثمان رواق [1]

[1] جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة، (الجزائر)، rouag.othmane@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/11/25 تاريخ القبول: 2020/12/26 تاريخ النشر: 2020/12/31

ملخص: تهدف هذه الدراسة للوقوف على جماليات الرواية الصوفية،عند محمد مفلاح من خلال روايته سفر السالكين،التي يمكن اعتبارها من روايات التجريب عند الكاتب خاصة وأنه من الروائيين الذين مارسوا كتابة الرواية الواقعية، كما يبدو جليا في أعماله الروائية (الانهيار، بيت الحمراء، الكافية والوشام، عائلة من فخار، شعلة المائدة) التي تعتبر من الروايات الواقعية ذات البعد التاريخي، ، لكن رواية سفر السالكين كسرت النمطية الواقعية، فما الجديد في هذا العمل ؟ وما الجماليات التي اتسمت بها الرواية، بوصفهانمطا تجريبيا انتهك جماليات الرواية الواقعية عند مفلاح، في التصورات الفكرية، وفي البنيات الفنية من زمن ومكان وشخصيات ومنظور روائ؟نتناول كل ذلك برؤية ومنهج يتبنى جماليات البنى السردية ودلالاتها.

كلمات مفتاحية: الرواية؛ سفر السالكين؛ محمد مفلاح؛ الصوفية؛ البطل الصوفي؛الزمن الصوفي؛الفضاء الصوفي

Abstract:this study aims to knowingthe aesthetics of sufism nouvel in safar essalikin to mohamed meflah.bicause it is considered a fictionel experience,in the writer,spath.so that all of his works are directed towards realism,it also appears evident in his novels,such as (elinhiar,bait elhamraa,homoum ezamen elfelagui,el kafia wa el wechem,aaila min fakhar,choelat el maida,with arealistic historical dimension,the commitment to the novel,srealistic aesthetics was evident in previous work,but the safar e salikine novel is different,in her construction and her content idiological,so what are her aesthetics that transcended the realism aesthetics? in terms of intelectual perceptions,and tchnical structures for novelistic work?

Keywords: nouvel; sufism nouvel; safar essalikin; mohamed meflahrealism; aesthetics

المؤلف المرسل: عثمان رواق ، الإيميل: rouag.othmane@gmail.com

1. مقدمة:

التجربة الصوفية تجربة روحية خاصة يمارس فيها المريد أو السالك طقوسا مخصوصة وشعائر دينية معينة، يطهر روحه من خلالها ويزكيها لتبلغ درجة المتصوف الزاهد أو درجة الولي المقرب، و هي تجربة يعيشها صاحبها بين مكابدة مشاق الطريق إلى الحضرة القدسية النورانية، وبين مقاومة رغبات النفس المادية، في حالة من الحب والوجد المقدس الرامي للوصول إلى المعرفة المطلقة، والقرب من الأنوار الإلهية، إنها رحلة الإنسان من المكون الترابي إلى المكون النوراني، من البعد المادي للإنسان إلى البعد الروحي المتعالي والمتسامي،"التصوف في حقيقة أمره محاولة لتجاوز الشعائر والرسوم الظاهرة لأي دين لكي تواجه النفس في أعماقها شحنات روحية تربطها بالجهد الخلاق وتدلف بها في أنوار المقدس والغامرة لتسبح في ينبوع النور وتنعم بالتواجد في جلال الحضرة الإلهية"(أبو ريان، د،ت، صفحة 07).

إنه سعي للكمال الروحي الراغب في التمسك بالخالد والباقي، ونبذ كل زائل وفاني لذلك يقول عبد المنعم خفاجي" التصوف إيثار لما يبقى على ما يفنى، تضحية بالعاجل وإيثار للآجل، مجاهدة للنفس ومغالبة لأهوائها هو نزوع فطري نحو الكمال الإنساني الرامي إلى التسامي "(خفاجي، 1938، صفحة 33).

وللتيار الصوفي تاريخ طويل في الحضارة العربية الإسلامية، بل يربطه البعض بالعصر الجاهلي، حيث عرف به أحد الزهاد الذين أعرضوا عن ملذات الحياة ومالوا إلى حياة التقشف، "أصل كلمة التصوف نسبها البعض إلى رجل زاهد متعبد في الجاهلية، كان يلقب (بصوفة) واسمه الغوث بن بركان، وفي رواية الغوث بن مر، كما أشار الزمخشري في أساس البلاغة والفيروز بادي في قاموسه المحيط إلى أن قوما في الجاهلية سموا بهذا الاسم وكانوا يعبدون الله في الكعبة ومن تشبه بهم سمي صوفي، ويعتبر هذا دليلا على أن النسك كان مذهبا معروفا في الجاهلية ومنهم نشأت طبقة المتحنفين؛ مثل ورقة بن نوفل "(تاريخ التصوف)

هذا ناهيك على أن الكثير من الحضارات السابقة للحضارة العربية الإسلامية قد ظهرت عندهم الكثير من النزعات الزهدية ، الداعية إلى نبذ الترف وحياة المتعة والملذات والتفرغ لترقية الروح والترفع بالنفس، وقد ظهرت هذه النزعة في الحضارة الهندية والفارسية، وعند بعض المسيحيين متجلية في الرهبنة وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم، "ثمقفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين

اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون"(الحديد الآية 26 ،برواية ورش عن نافع).

وكثيرا ما تشير التفاسير إلى أن الرهبانية هي نوع من التقشف في المعيشة ورفض مباهجها، فلا تأنق في الملبس ولا تعلق بمقتضيات الحياة من زوجة وأولاد ومناصب وإنما هي حياة بسيطة، يتفرغ فيها صاحبها للتعبد والرياضة الروحية وهذا ما يوافق ظاهرة التصوف، ويتطابق مع مذهب المتصوفين، وهناك من رد التصوف إلى الحضارة العربية الإسلامية، واعتبره ردة فعل لطغيان حياة الترف؛ خاصة في العصر العباسي الذي عرف أوج ازدهار الدولة الإسلامية، و انتشارها واتساعها، على أن بداياته لابد وأنها مرتبطة ببعض الممارسات الزهدية لبعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، مثل: ما يروى عن أصحاب الصفة في مسجد رسول الله وهم جماعة من فقراء المسلمين؛ الذين اتخذوا من المسجد مأوى لهم وتفرغوا للعبادة ولبسوا من الثياب الخشن والصوفي، "والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف"(خلدون، 2003، صفحة 462)

وهم بهذا التوجه أوجدوا جذورا تاريخية لمذهب التصوف وأعطوه شرعيته عند متبعيه، ويذهب آخرون أن التصوف هو مذهب دخيل على الدين الإسلامي ، وإنما جاء مع ما كان شائعا لدى الفرس والهنود من فلسفة و رياضات روحية و مثنوية، حتى اعتبر التصوف من المظاهر الموجودة في كل الأقطار وفي كل العصور وفي كل العقائد، "هو الصيحة الخالدة من جانب الروح الإنسانية لتحصيل الراحة، إنه الشوق الذي لا يشبعه إلا الإمساك بالمثل الخالصة التي قيدها الواقع البائس هذا الروح الذي يأبى إلا أن يجعل صوته مسموعا، إنها مسيرة موحدة بشكل عجيب لكل العصور وفي كل البلاد وفي كل العقائد، سواء أجاءت من حكيم برهمي أو فيلسوف إغريقي أو زاهد مسيحي أو راهب صيني"(حسان، 2003)

لكن الذي لا يختلف فيه الجميع هو أن التصوف بات اليوم يشكل أحد المنابع التراثية، التي تغني التجربة الإنسانية في عصرنا الحاضر برؤى مختلفة وبرموز مثيرة،كثيرا ما يستغلها الأدباء في إثراء تجاربهم الإبداعية خاصة أن التجربة الصوفية متعددة الدلالة قابلة للتأويل، وتوحي العودة للتراث الصوفي في الأدب بجدية

التجربة وتفردها، وارتباط صاحبها بأصالته الثقافية لذلك تذهب الباحثة فتيحة غزالي إلى القول، " في هذا السياق الإرث الصوفي وتجلياته في الرواية المعاصرة أكثر المواضيع استحقاقا للدراسة"(غزالي، 2018، صفحة مقدمة).

لأنها تجربة واعية تماما بأفق التجريب، مضيفة بعدا جادا في التجريب عند كتاب الرواية العربية، ونعتبرها خلاصة مقطرة لجهد بذل بحق؛ في ابتكار عوالم جديدة في الرواية بطريقة تختزل الأبعاد التاريخية، والسياسيةوالحضارية، والدينية والنفسية والتأملية في تشكيلات تعتمد على الرمز والمفارقات العجيبة والقاسية في كثير من الأحيان، بين عالمين عالم الوجود وعالم الغياب، إن الرواية الصوفية حين تحاول أن تعالج واقع المجتمع، باستدعائها للعوالم الخاصة بالشخصيات الصوفية وتحولاتها وتدرجها في مراتب الارتقاء، تحاول في الوقت ذاته أن تستثمر ما في هذه العوالم من جماليات خاصة، تفرضها التجربة الذاتية والجماعية للمتصوفين، بداية باللغة الصوفية وما تكتنزه من رموز وأسرار، قد لا يفقهها إلا أصحاب الخبرة وأصحاب الميدان من أهل المذهب، وقد لفت نظر الكتاب والباحثين منذ زمن بعيد ما تمتاز به لغة الصوفي من دلالات خاصة، قد تخرجها من الدلالات المتعارف عليها في اللغة العادية، فالشطح والقهوة والحب والوجد والغيبة والحضرة، والولي والقطب والمريد..كلها مصطلحات صوفية أبدعتها اللغة الصوفية وهي تحتاج إلى تأمل عميق لفهم دلالاتها ووضعها في سياقها الخاص، إنها بحر عميق لا قرار له، غامض متعدد المعاني"بل إن هندستها وتشكيلها كذلك يمنحانها القدرة على التشظي، ومنه إخفاء المعنى الذي يتمنع على القاريء مما يجعل الإنسان في بحث دائم عن المعنى لا مالكا له"(بغورة، 2003، صفحة 37)

ذلك أن كل فئة اجتماعية أو مذهبية تنتج معجمها الخاص بها ولغتها التي تعبر عن مكنوناتها، وكثيرا ما تحمل تلك اللغة سمات تلك المجموعة البشرية، وتعكس ما يجيش في نفس أصحابها من مشاعر وأحاسيس وأفكار، وهي عند أهلها أوضح من سواهم، "وهذا ما يؤكد التعددية في نظام اللغات البشرية..إن ما يجعل اللغة مفتوحة كونها وسيلة إبداع لأنماط جديدة متنوعة عديدة ومستمرة ويمكن نقل مفاهيمها الاصطلاحية وتعميمها على كامل الوجود البشري"(عجمية، 2020، الصفحات 80-81)

ومن هذا المنطلق تحاول هذه الدراسة الوقوف عند جماليات اللغة الصوفية في رواية سفر السالكين، باعتبارها أول التجليات التي يصادفها القارئ للرواية لأنها دون شك لا تشبه ما ألف من لغة الرواية العادية

،حيث التوحد بين الذات والموضوع وذوبان العاشق في المعشوق، "إنها تمتح عبقريتها من النسغ الإلهي، الذي يغريها حد التصوف والتقديس والتطلع نحو التوحد بالذات العليا واستبطان السحر الجمالي في خواص الأشياء"(حافظ، 2006، صفحة 175)، لنحاول الإجابة عن التساؤل التالي بم تميزت اللغة الروائية في رواية سفر السالكين، وما الجماليات التي ميزتها عن لغة بقية الروايات الأخرى؟

لتعرج بعدها على مسائلة البنية وجمالياتها، ذلك أن الرواية الصوفية لا تختلف عن الروايات الأخرى في حضور العناصر المشكلة للبنية السردية، من زمن ومكان وشخصيات ورؤية، لكن جوهر الاختلاف يكمن في الجماليات التي يتوسل بها محمد مفلاح لرسم عوالمه و فضاءاته وأزمنته الصوفية في عمله الروائي، هذا دون أن تغفل الدراسة الإشارة إلى جمليات التناص في رواية سفر السالكين وأهم المصادر التي تفاعلت معها هذه الرواية؟ إن دراستنا هذه تحاول أن تضع النص ضمن سياقه الإبداعي، وضمن مسار الكاتب الذي يمتد لردهة من الزمن لنجيب عن سؤال كبير ما الذي أضافته رواية سفر السالكين لرصيد الكاتب، ولرصيد الرواية الجزائرية، وما الذي أحدثته من تحول في مسار الرواية عند محمد مفلاح كمحاولة منه للإفلات من ربقة التيار الواقعي ودخول عالم التجريب؟

2. رواية سفر السالكين السياق والمضمون:

رواية سفر السالكين سنة (2014)،وهي امتداد لأعمال محمد مفلاح الإبداعية الأخيرة المتميزة بموضوعاتها كالتصوف، والشعر الشعبي، والطرب البدوي، ووعدات الأولياء الصالحين"(عبد الحميد)، قدم لها بقوله"وداعا يا أحبتي..وداعا تمنيت لو تأخر سفركم ..لكنه القضاء والقدر"(عبد الحميد، صفحة 05)، بهذا التقديم الحزين يفتتح الكاتب روايته وهو تقديم يبدي فيه الراوي سياق انكتاب النص،هذا السياق الذي يحيل على مشاعر الفقد والحنين للأحبة، هؤلاء الذين رحلوا دون إذن مسبق ليتعلل بفقدهم بفعل القضاء والقدر، والحقيقة إن الرواية حين تفتتح بهذا النوع من الإعلان الحزين تهيئ القارئ لاستقبال مخلف المحطات الحزينة التي سيمر بها الراوي؛ قبل أن يكتشف طريق الخلاص متمثلا في انتهاج نهج العارفين بالله الساعين إليه،فتظهر الرواية في مختلف أحداثها كمتتالية من الفقد و الخسارات التي عاناها الراوي.

2- 1- **مقام الحيرة:** يترك الراوي في كل مرة جزءا حميما من ذكرياته؛ بداية بفقد الأب المشاغب صاحب المغامرات مرورا بعاداته وحركته وأحبته ليتجه إلى العزلة، بعد أن أدرك متأخرا بأنه "صار يشعر بالغربة في مدينته التي

لم تعد جذابة كما كانت في الزمن البهي ..كل شيء تغير"(مفلاح، 2014، صفحة 07)لقد اكتشف الراوي –الشخصية الهاشمي المشلح – أن حياته لم السابقة لم تكن تلك الحياة التي ترضيه، خاصة بعد أن غادر الوظيفة وخلد إلى التقاعد المسبق، حينها أدرك أن حريته كانت مسلوبة بهيمنة الرتابة التي تفرضها عادات الموظف ومسيرته اليومية، كما أدرك أن كل من كان يتقرب منه إنما كان يتقرب من منصبه،فلا غرابة أن تخلى عنه الجميع، وحتى أسرته المقربة وجدت في تقاعده فقدانا لأهميته في البيت والمجتمع، فأضاف كل ذلك لإحساسه الدائم بالفقد، "تخليت عن الوظيفة التي اعتقدت أنها كانت عالمي الوحيد وهي في الحقيقة كانت سجنا خطيرا."(مفلاح، 2014، صفحة 12)ليشكل كل ذلك بداية توجه الراوي إلى البحث عن وجهة جديدة لعلها تكون راحة لنفسه المتعبة، "فالابتعاد عن العادات السلبية واكتساب عادات جديدة وإيجابية تضفي السعادة النفسية على الذات"(السيد، 2020) لتشكل هذه النقلة محطة أولى في مسيرة الرجل نحو التحول إلى تجربة جديدة تقطع أواصر القربى بينه وبين حيلته الكئيبة في مراحلها الأولى، كأنه بذلك يقوم بمراجعة لحياته ولمنغصاتها وأسباب تعاستها، باحثا في الوقت نفسه عن ملجأ جديد ينقده من تعاسته ومن بؤسه، إن الحياة المادية التي عاشتها شخصية بن المشلح، رغم أنها تبدو مستقرة لكنها من منظوره الخاص ما كانت إلا سجنا ضاع فيه أزهى أيام حياته بين سجن الوظيفة، وسجن رغبات الجسم ورغبات الآخرين التي لا تنتهي، ولا أحسب ذلك إلا بداية ترقي – بن المشلح المريد– في مراتب الزهد وبدية مشواره مع سفر السالكين"فالروح العاقل والمتصرف في البدن تنشأ من إدراكات وإرادات وأحوال، وهي التي يتميز بها الإنسان، وبعضها ينشأ من بعض، كما ينشأ العلم من الأدلة، والفرح والحزن عن إدراك المؤلم أو المتلذذ به ...وكذلك المريد في مجاهدته وعبادته لابد وأن ينشأ له عن كل مجاهدة حالا نتيجة تلك المجاهدة..وإنما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات ولا يزال المريد يترقى من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة"(خلدون، 2003، الصفحات 462-463) لقد بدأ الراوي يحس بوحشة قاتلة في متاهات الحياة ومشاغلها،ليكون هذا المقام مقام الوحشة أول مقاماته في مسيرته نحو السعادة، هذه الوحشة التي امتزج فيها الذاتي بالموضوعي، حيث امتزج الشعور بالحزن نتيجة تخلي الجميع عن الراوي، بسوء الأحوال وتغير الناس وقسوتهم وتهميشهم له، "فلم يكلفوا أنفسهم حتى عناء زيارته بعد حادثة السيارة التي شوهت وجهه، وزادته حزنا وعزلة ووحشة، "أصبحت بعد إحالتي على التقاعد المسبق شخصا متوحدا مهموما، ولي رغبة في الانتقام من كل شخص أعتقد أنه أساء إلي أو تخلى عني في أوقات الشدة،وبخاصة أيام المحنة القاسية التي تعرضت فيها لحادث سيارة مشئوم"(مفلاح، 2014، صفحة 07)

كانت الانطلاقة مع شخصية الهاشمي بن المشلح ليستعرض بدايات قصته وتعرجاتها، معربا عن خيبات أمل متتالية وعن حياة بائسة خالية من السعادة،قادته إلى العزلة، ومنها إلى إعادة طرح الأسئلة المصيرية، حول الحياة والموت،الغنى والفقر المادة والروح، الدنيا والآخرة، حيث أسهمت بعض الشخصيات في تفعيل هذه التساؤلات في دهن الشخصية- السارد- مثل شخصية فوزي السماط، وبصافي المايدي، وبوزيان الماركانتي، وهواري البني، وعددهم "سبعة ولا شك أن لهذا الرقم بعده الروحي والدلالي"(عبد الحميد) فلكل من هذه الشخصيات قصته المؤلمة التي أثارت شخصية بن المشلح، ودفعته لإعادة البحث عن طريق جديدة لحياته؛ تبعده عن تلك الرتابة التي عهدها وألفها حد البؤس، والجامع بين هذه الشخصيات هو السن المتقارب فهي شخصيات تعيش خريف العمر.

2.2. **مقام المريد:** لم يكن البحث الذي بدأته شخصية بن المشلح بالأمر السهل، فكان لابد أن يتجاوز احتجاجات الزوجة والأولاد على التغيرات التي طرأت عليه، كما كان عليه أن يعيش حيرة الاختيار، لذلك لجأ أول الأمر للفن والغناء الشعبي، إلى أن انتهى به الأمر مع الحاج العربي الشيلي الذي وضع قدمه على عتبات التصوف، كل ذلك يقدم على لسان راو آخر؛ هو بصافي المايدي أحد أصدقاء بن لمشلح، والذي كان يستغرب من هذا التحول في شخصية بن لمشلح، وفي خضم هذه الأحداث يقدم الروائي على لسان مجموعة من الشخصيات، مثل هواري البني المناضل اليساري السابق وبن لمشلح وبصافي والشيخ الشيلي، نقدا لاذعا لطبيعة المرحلة وما تعرفه من فساد كبير، "آه يا زمن الرماد ماذا جرى؟.. لم أعد أهتم بالأيديولوجيات،بعد يئس من إصلاح مجتمع مضطرب انصهرت كل طبقاته في كتلة واحدة غامضة التوجه والحركات، تحركها نزعة استهلاك فقط -علق هواري البني- "(مفلاح، 2014، صفحة 57)، لتكون هذه الإشارات السياق الثقافي والاجتماعي والسياسي لكتابة الرواية، هو زمن الفساد وهيمنة الرؤية الضبابية وسيطرت الطبقة البورجوازية التي داست كل القيم، ومسخت قيم المجتمع فصار لا ينكر منكرا ولا يعرف صلاحا، "إقرأ إقرأ يا سي الجبهوي المخدر الفساد عم كل المكان، ألم تزكمك رائحته النتنة..انخدعنا بشعاراتكم المظللة بعد وفاة الزعيم موسطاش تراجعتم عن الخيار الصحيح أخشى أن أغادر الحياة قبل أن يحاسب المفسدون ..الذين دمروا الاقتصاد ..ورمونا في فم الغول"(مفلاح، 2014، الصفحات 40-41) هذه النزعة النقدية لطبيعة المرحلة تؤسس من زاوية خفية لطبيعة التوجه الصوفي الذي اختاره بن لمشلح، كنوع من الهروب من واقعه البائس إلى عالم الغيبيات والدروشة لتحقيق نوع من الراحة النفسية المفقودة في الواقع المعيش" حيرني سلوك الهاشمي المشلح منذ اليوم الذي رافق فيه الحاج العربي الشيلي إلى زاوية العبادة، صار ينتقل من حضرة صوفية إلى أخرى، ومن زيارة ضريح إلى آخر..كان هواري البني يرى فيهما وفي زيارتهما للأضرحة،

رجعية وتخلف، استغله أصحاب الأموال الجشعون لتخدير الشعب"(مفلاح، 2014، صفحة 37) وكثيرا ما كان يتغنى بهذه الأبيات بالفرنسية للتعبير عن مقته لأغنياء المرحلة الذين نهبوا كل شيء :" les Bourgois comme les couchons…plus ca devient vieux ca devient bête" (مفلاح، 2014، صفحة 50)

3.2. **مقام – العارف– الرضا والسعادة**:لتكون فصول الرواية المتبقية تصويرا لحياة الهاشمي المشلح الصوفي، ورحلاته المختلف من مقام إلى مقام ومن حضرة إلى حضرة اخرى، وما يجد في ذلك من لذة روحية تنسيه هموم حياته وهموم زوجته وبناته وطلباتهم التي لاتنتهي، واهتماماتهم التافهة التي لاتخرج من دائرة الحياة المادية، لتنتهي الرواية بالغياب التام للهاشمي المشلح عن الحضور المادي، ليغوص في الغياب منغمسا في الوجد الصوفي مودعا كل أحبته معربا أنه صار ينتمي إلى عالم جديد يختلف عن العالم الذي ألفه الناس، عالم الروح وعالم الصفاء والنقاء، عالم لا أوهام فيه ولا كذب ولا فساد، عالم الخير المطلق الذي يحقق السعادة الحقة لا السعادة المزيفة؛ التي يحياها الناس في يومياتهم البائسة، "جريت خلفهم وجريت حتى طرت، صرت عصفورا مغردا في سماء فسيحة صافية، شعرت بسعادة غامرة وأنا أسبح في الفضاء الجديد الذي أحببت البقاء فيه، رافضا لعودة إلى هناك..إلى دنياهم إلى أوهامهم ..أما الآن هنا ..أراهم ..أراهم فقط..فوداعا أحبتي..وداعا"(مفلاح، 2014، صفحة 107)

3- **جماليات اللغة في رواية سفر السالكين**:حاولت الرواية العربية الجزائرية في إطار التوجه التجريبي المعاصر، التخلص من اللغة الصارمة للتيار الواقعي، التي وسمتها في تجربتها التأسيسية الأولى، وإن من الأساليب التي أدخلها الروائيون في رواياتهم كنوع من التجريب، لغة التيارات الفكرية والدينية المختلفة ولغة الفلسفة، ولغة الفكر والفن والموسيقى ولغة التصوف كذلك، "لقد فتح ذلك للرواية آفاقا جديدة، ولم تقتصر الكتابات المعاصرة على ما جادت به اللغة من بلاغة، ..بل تجاوزته إلى اقتحام عوالم استشرافية صوفية وذلك باستحضار موروث ضخم مختلف المشارب و الأجناس الأدبية"(عقاق، 2014) مما يعزز رأي ميخائيل باختين في كتابه الخطاب الروائي الذي وضح فيه أن اللغة في النص الروائي"يمكن أن تدخلها اللغات والمنظورات الأدبية والأيديولوجية المتعددة الأشكال لغات الأجناس التعبيرية، والمهن والفئات الاجتماعية ..كما يمكن تدخلها اللغات الموجهة"(باختين، 2009، صفحة 145)

لقد كان الأمل يحدو الروائي الجزائري أن تمده اللغة الصوفية من مخوزنها الرمزي، بكم من الرموز والإيحاءات التي ستمكنه من التعبير عن رؤيته الجديدة للعالم، في ظل طغيان الكتابة التجريبية المنفتحة، على الذاتي والمتخيل،والديني والأسطوري والروحي والصوفي، وبذلك تدعم معجمه بلغة صوفية شفافة ورمزية ومتعددة، وكأن الروائي يتشبه بذلك الصوفي في مجاهدته ورياضته الروحية، حسب تعبير لحبيب السايح " الروائي على قد كبير من

التوتر الروحي والقلق الوجداني مما يجعله يرقى مثل الصوفي، والكتابة الروائية عندي درجة من درجات البلاغ الصوفي"(عقاق، 2014)

3-1- لغة الواقع والحيرة :تجدر الإشارة أن اللغة في رواية سفر السالكين، جاءت في مستويات عدة معبرة عن وجهات نظر مختلفة حد التناقض أحيانا، خاصة في بداية الرواية التي جسدت حيرة الهاشمي المشلح الذي يعد بطل الرواية صاحب التوجه الصوفي،الذي هيمنت قصته على مسار الرواية، فكانت في هذا المستوى لغة واقعية تناولت اليومي والهامشي والعادي في حياة الهاشمي،مع تركيزها على الحيرة وآلام الفقد، لتعكس بذلك مرحلة أولى من مراحل حياة الشخصية قبل اتصالها بالتصوف وعالمه، "كنت أفضل السير الحثيث في الشوارع والأزقة الضيقة حتى لا ألتقي أصدقاء وزملاء سابقين لا أحبهم، أصبحت بعد إحالتي على التقاعد المسبق شخصا متوحدا مهموما ..شعرت بالغربة القاتلة في مدينتي التي لم تعد جذابة كما كانت في الزمن البهي..ما أقسى العزلة التي اشتدت حدتها علي منذ اللحظة التي أحلت فيها نفسي على التقاعد المسبق، عزلة غريبة تقتات من صبري"(مفلاح، 2014، الصفحات 07-08)) إنها لغة تنقل هواجس شخصية الهاشمي المشلح الذي لم يعد يجد الطمأنينة 'لنفسية في مجتمع مضطرب، تسوده أخلاق نفعية وفوضى عارمة وفساد لا يطلق، حيث يشكل فعل السير دون وجهة معينة في شوارع المدينة، هروبا لهذه الشخصية من واقعها ودليلا على الحيرة فلا هدف ولا غاية، إلا الهروب والنقمة المكبوتة على مجتمع ينهار، ويتحول شيئا فشيئا إلى ما يشبه حظيرة حيوانات يأكل فيها القوي الضعيف، ولا يعطف فيها أحد على أحد ولا يرحم فيها أحد أحدا، إلا لمصلحة دنيوية أو غرض دنيوي، حتى أقرب الناس إلى شخصية الهاشمي، تغيرت في معاملته ولم تعد تكن له الاحترام كما في السابق؛ يوم كان يستطيع قضاء حوائجهم، كما كان الأمر مع "زوجته وبناته، وصديقه المقرب عبد الحليم الزغبي"(مفلاح، 2014، صفحة 09).

3-2- لغة الاطمئنان والراحة :في مستوى ثان من مستويات اللغة الروائية، انتقلت لغة الشخصية إلى لغة الرضا والطمأنينة، خاصة بعد أن اتصل بأصدقائه الذين تعرف عليهم حديثا، وخاصة الشيخ الشيلي الذي عرف بقربه من المتصوفين ومن المزارات، فهو الذي سيأخذ بيده لينقده من ضياعه وشكه وحيرتهن وهذا ما سينعكس على لغة الشخصية، فتتحول إلى لغة مسلمة لقضاء الله وقدره، لا ترى فيما يصيبها إلا مكتوبا كتبه الله عليها، ولا مناص من الرضوخ له والتسليم له، بذلك كان يلهج لسانه كلما واجهه أحد أصدقائه بهم أو بشكوى من الدنيا وهمومها، لتشكل هذه اللغة بداية تحول في شخصية الهاشمي المشلح، واستعداده النفسي لدخول عالم التصوف المريح له، همومه الدنيوية وكان في ذلك مقلدا لشيخه،الحاج العربي الشيلي، الذي كان دائما يردد" واستغفر ثم

حك قفاه بسبابة يمناه وقال بلهجة هادئة: الحمد لله على نعمه"(مفلاح، 2014، صفحة 23)لقد أحس الهاشمي أن لقاءه مع الشيخ العربي الشيلي قد أعطى لحياته معنى جديدا لم يعهده عرفت فيه معنى جديدا مختلفا عن اليام ..في هذا اليوم تعرفت على نفسي..لقد تغير الرجل ..جملة يطرب لها الهاشمي بعد أن تعرف إلى صديقه الجديد"(مفلاح، 2014، الصفحات 27-28-31)إنها لغة المريد الذي يجد في شيخه طريقا للراحة، واستعادة معنى الحياة.

3.3. **لغة العارف** :هي لغة سيتبناها بطل الرواية حين يبدأ رحلته الصوفية، حين يلتحق بركب السالكين،"ثم ما يلبث- الهاشمي- أن مال إلى التصوف متأثرا بسلوك الخضار الحاج العربي الشيلي، المنتمي إلى الطريقة الحضرية وبمرور الوقت يستهويه التصوف أكثر فينكب على مطالعة كتب أعلامهم و انتهى به الأمر إلى عالم السياحة في أرض الله"(عبد الحميد)،من هنا تبدأ لغة البطل في التحول إلى لغة العارفين،" هي تلك اللغة الإشرافية التي غلب عليها الفيض النوراني والمواجيد والشطح والسكر"(أنس الوجود، 2000، صفحة 55) وتتحول معه لغة الرواية إلى تبني لغة أصحاب الطريقة، في رؤيتهم للواقع، وفي شطحاتهم وفي زياراتهم إلى الأضرحة و تقربهم إلى الأولياء والصالحين، وفي كل ذلك يتضمن معجم الرواية الكثير من المصطلحات التي يستمدها السارد من عالم التصوف، مثل الذكر و الحضرة والأولياء والضريح، والملكوت والصفاء والتجلي وبدأت أسماء من أعلام التصوف تظهر على صفحات الرواية خاصة حين يتفرغ الهاشمي لقراءة كتب مشاهير المتصوفة، مثل أبو حامد الغزالي، والجنيد والحلاج،مع استحضار السارد للطقوس الصوفية في حضرتهم،وأذكارهم المختلفة التي يرددونها في حلقات جماعية مثل"وصاح الحاج مجذوب " الله الله الله لا إله إلا الله، وارتجت أوصالي وظل إخواني الفقراء يرددون وهم في حالة سكر الله دايم حي الله دايم حي الله حي الله دايم حي باقي حي"(مفلاح، 2014، صفحة 67)،إنها صورة حية لحالة من حالات الوجد الصوفي، وحالة من حالات السكر بالخمرة الإلهية التي تجعل البطل – الهاشمي- يعلن حمده لربه أن هداه لهذا الطريق الذي عرف فيه السعادة، وأطل من خلاله على عوالم لم يكن يعلم عنها شيئا، "الحمد لله على نعمة الذكر والانتساب إلى الطريقة، بعد ساعة واحدة سأشارك في جلسة سماع حتى الفناء في الحضرة الإلهية ..أنت لا تعرف شيئا عن لحظة واحدة من الحضرة الصوفية التي تسافر بالإنسان من واقع الأوحال إلى عالم الملكوت"(مفلاح، 2014، الصفحات 62-63)

4.3. الرمز الصوفي:

تحاول رواية سفر السالكين أن تؤسس لخطابها الصوفي؛ عبر استحضار بعض الرموز الصوفية، التي تحتاج إلى روية ودربة لفهمها خاصة وأنها تنتج في سياقها الخاص الذي ينصهر فيه الذاتي والموضوعي، وتصبح اللغة "تجربة روحية وجزء لا يتجزأ من منظومة –الصوفي– المعرفية ونظريته الخاصة التي تربط الكون كله بالخالق عز وجل"(عقاق، 2014).

وقد عرف المعجم الصوفي الكثير من الرموز التي شكلت عبر العصور، طريقتهم الخاصة في وصف ما لا يوصف وتجسيد تجربتهم الموغلة في التجريد والغياب، يقف الهاشمي المشلح على حقيقة الوجود فيرفضه ويبحث عن عالم الملكوت، وفضاء الطهر فيدركه في جلسات الصوفية، وحين يصف حالاتهم يقول: "وأنشد بعض إخوتي الفقراء لازمة القصيدة ..صفق شيخنا الجليل ثم نهض بخفة فقمنا بسرعة وشكلنا حوله حلقة وانتصب الشيخ وسط الحلقة المتلاحمة، ثم أنشدنا معه قصيدة سيدي بومدين: **ما لذة العيش إلا صحبة الفقراء ****** هم الأمراء السلاطين والسادة والأمراء**،وصاح الحاج مجذوب: الله..الله..لا إله إلا الله"(مفلاح، 2014، صفحة 67)،فلفظ الفقراء إنما يدل على جماعة المريدين الذين يلتفون حول شيخهم، وقد تخلوا عن ملذات الحياة التي يتنافس الناس حولها،وإن فقرهم ليس حالة مادية وإنما حالة روحية تدل على حاجتهم لله سبحانه، ورغبتهم الملحة في التقرب منه ، بكل أنواع الطاعات والأدعية وبمختلف الطقوس،التي تدل على ضعفهم ووجدهم وحبهم وفنائهم بحثا عن الأنوار الإلهية، وفي هذا السياق يدخل معنى الحب والعشق، فهو مصطلح صوفي يدل على حب الإنسان لله سبحانه وتعالى وحب قربه:" **يا روضة العشاق *** هيجت مهجتيأيا حضرة الانطلاق *** فيضت صبابتي**

اهتز جسدي الملتحم بأجساد إخواني الفقراء، المتحركة بحماسة، ثم ازدادت حركتنا سرعة متناغمة مع أصواتنا المرددة لاسم الجلالة، الله ..الله..الله"(مفلاح، 2014، صفحة 68) وبذلك يتخذ الحب عند الصوفي في رواية سفر السالكين،تلك اللحمة التي تجمع تلك الحلقة المقدسة أولا، ثم ذلك الشوق الذي يحرك قلوب هؤلاء الفقراء لربهم من أجل الوصول إلى مرضاته والظفر بقربه فينالوا بذلك سعادة لا يدركها غيرهم، حتى ليحسبهم من يراهم في وجدهم وحنينهم قد خرجوا من عقولهم، ودخلوا دائرة الخبل، ومن خلال حركات الجسد واهتزازاته،تحدوا الصوفي رغبة جامحة في تجسيد هذا المعنى الروحي، في سياق واقعي، فيفقد القدرة على السيطرة على الجسد لينطلق في فضاءات الإنعتاق والحرية، في حضرة المعاني السامية والنفحات الربانية، حتى قال الرجل العارف الهاشمي"ظل لساني يلهج بالذكر وكأنه استقل عني"(مفلاح، 2014، صفحة 68)، إنها حالة الوجد والبحث عن الذوبان في محبة الله

وقربه، فلاشيء يشغل الصوفي عن حبه، ولا محبوب له إلا الله ، ونفحاته النورانية، التي تغمر المريد، بالسعادة والحبور والرضا، فيشعره بانسلاخه عن عالم الناس، واتصاله بعالم النور والقداسة، فيتمنى أن يدوم هذا الحال إلى ما لا نهاية،"فمفهوم الحب يتخذ في الفلسفة الصوفية دلالة عميقة، حيث إنه لذة لا لذة قبلها ولا بعدها، بل إن المتصوفة يرون بأن أصل الوجود هو المحبة لذلك قال بن عربي في ديوانه ترجمان الأشواق:أدين بدين الحب أنى توجهت ***** ركابه فالحب ديني وإيماني"(أدادا)وتلك إحدى الركائز الأساسية التي يعتمدها الصوفي، في بحثه عن الانسجام الإنساني الذي يتجاوز الظواهر،ويغوص في الحقائق، فالمحبة من شأنها أن تصهر البشرية جمعاء في بوتقة الذوبان في حب الذات الإلهية المتسامية، التي تجمع الجميع على اختلاف عقائدهم، وأجناسهم ولغاتهم وأوطانهم، ومعجم رواية سفر السالكين حافل بلغة المتصوفة ورموزهم الذالة على خصوصية التجربة عندهم، وحتى مفردة السفر التي اختارها الكاتب عنوانا لروايته، إنما تحيل على سفر من نوع خاص، يخرج من خلاله المريد من دائرة الغفلة إلى دائرة المعرفة والتعلق بالدائم والباقي والخالد، إنه سفر الروح من عوالم البؤس والفقر الروحي، إلى عوالم السعادة التي ينشدها الجميع، ليس على المستوى الروحي فقط وإنما على كل المستويات، "السفر كما قال سيدي الشيخ يسفر عن معدن الإنسان، الحمد لله الذي هداني للطريق"(مفلاح، 2014، صفحة 100)

4- البطل الصوفي في رواية سفر السالكين:إن الحديث عن البطل الصوفي في الرواية، يقود إلى الحديث عن الشخصية الروائية وتفاعلها مع بقية العناصر السردية الأخرى، ذلك أن البطل الصوفي هو شخصية روائية، يبدعها المؤلف ليضعها في سياقها الخاص لتخوض مغامرتها الروحية، متحدية عالم المادة وإكراهات المجتمع والواقع، لذلك لا نرى فرقا بين بنية الشخصية في الروايات العادية، وبنية الشخصية في الرواية الصوفية خاصة من الجانب المورفولوجي للشخصية، والمكانة الاجتماعية والطبقية التي تحتلها الشخصية،وكذلك العادات السلوكية التي تألفها الشخصية في مسارها السردي، لكن جوهر الاختلاف يكمن في مكنونات هذه الشخصية وهواجسها وتطلعاتها إلى عوالم غيبية، وانفصالها روحيا عن المجموع والتحليق بعيدا في عوالم خاصة لا يفقهها ولا يدرك كنهها إلا العارف بها؛ "إنها نماذج روحية تتخذ، لما لها من قيمة تاريخية وأخلاقية تشكل نمطا وعبرة في راهننا"(أدادا)، تضعنا الرواية منذ البداية في مواجهة بطل الرواية الهاشمي المشلح، لتقدمه في أولى محطاته مع الحياة شخصية تعارك الحياة، وتتخبط في البحث عن مسلك جديد لحياتها، يكون أكثر إنسانية وحرية ومعنى، شخصية الموظف العائل لأسرة لها متطلباتها اليومية العاجلة، شخصية تدور في حلقة مفرغة أخذت الجانب الجميل من حياتها، " كنت في العاشرة من عمري، لما اختفى والدي وقد أشاع كمال بوكرش؛ عازف الكمان، أن صديقه طيب المشلح هرب مع لوزية

العلجية، والدتي أخبرتني أنه سافر إلى فرنسا بحثا عن دار (باتي) لتسجيل بعض أغانيه، اختفى والدي ولم يظهر له أي أثر إلى حد الساعة،تركنا – أنا وأمي– في مواجهة الضياع، اشتغلت والدتي بعمل النسيج، ولما تحصلت على شهادة البكالوريا شعبة العلوم البحتة، قررت دخول عالم الشغل، فكان حظي في مصلحة الشؤون الاجتماعية، وبعد خمس وثلاثين سنة من العمل، تخليت عن الوظيفة التي اعتقدت أنها كانت عالمي الوحيد، وهي في الحقيقة كانت سجنا خطيرا دفنت فيها كل أحلامي، للأسف لم أتفطن إلى هذه المأساة إلا بعد إحالتي على التقاعد"(مفلاح، 2014، صفحة 12) إنها شخصية مأزومة بسبب المآسي الاجتماعية التي حدت من خياراتها في الحياة، أسرة فقيرة فاقدة للأب، وأم عاملة لتأمين حاجيات الأسرة وابن يكافح لتغيير واقعها، ليكون موظفا في النهاية، رغم أنه كان يصبو لما هو أحسن، لذلك أدرك في النهاية أن الوظيفة كانت خسارة لكل جميل في حياته بعد أن تركها،هذه الأزمة كانت مدعاة للبحث عن الخلاص لتبدأ ملامح البطل الصوفي في التشكل،عبر رحلة البحث عن الذات ولله والغيب، في عالم التصوف الرحب،" ذلك أن شكل هذه الرواية هو شكل الرحلة..إنها توهم القارئ بتغير الشخصية والمكان معا"(روحي الفيصل، 2003، صفحة 149)، لكن التغير الحقيقي يقع على مستوى البنية النفسية والفكرية للشخصية.

4–1– البطل الزاهد:من المعالم الأساسية لشخصية البطل في رواية سفر السالكين، زهدها في الحياة المادية، التي لم تعد تشكل في نظرها أي معنى وأي قيمة، يدخل في ذلك الرغبات المادية والملذات الجسدية، والمكانة الاجتماعية والوظيفية، العلاقات الاجتماعية، والنظم المسيرة لها،لذلك نجد أن الهاشمي المشلح ينتقد بشدة كل هذه القضايا ملحا على اعتزالها والنفور منها، محاولا التسلح بالقيم الأخلاقية، والسلوكيات التي تحقق له الرضا النفسي والوجداني، حتى وإن أسخطت الجميع، فالعزلة والترفع والتوحد كلها صارت من يوميات البطل الصوفي،"فعلامة العارف أن يكون فارغا من أمور الدارين منشغلا بالله وحده"(السعيدي، 1988، صفحة 172)خاصة وأن كل شيء من حوله قد تغير إلى الأسوأ، الناس العادات التقاليد، المدينة وشوارعها، فالفساد في كل مكان حتى صار عنوانا لكل شيء، "كنت أفضل السير الحثيث في الشوارع والأزقة الضيقة حتى لا ألتقي أصدقاء وزملاء سابقين لا أحبهم..شعرت بغربة قاتلة في مدينتي التي لم تعد جذابة..فرخت بنايات ضخمة لا روح فيها، لا أخفي سرا إذا قلت بأنني كرهت أقاربي وزملائي.."(مفلاح، 2014، الصفحات 07-08)، وقد أتبع كل ذلك بجملة من التدابير، كالتمرد على طلبات الأسرة، والأصدقاء، ثم وصل به الأمر إلى ممارسة السفر الدائم بعيدا عن الناس والعائلة، قاصدا الأولياء والأضرحة، ممارسا طقوس الدروشة والشطح الصوفي، في حالة من الوجد والشوق إلى الحبيب

حسب تعبير الصوفية، بعد أن تخلى عن كل راتبه لزوجه لتتصرف فيه كيف تشاء وكف عن التدخل في شؤون الآخرين واكتفى بمراقبة نفسه حتى لا تعود به غلى عهده الأول، بمثل هذه العزلة تحضر الرواية شخصية الهاشمي المشلح للتغيير الكبير الذي سيحدث لها،" فالتجرد من نوازع الذات وصفاتها صفة تمكنها من الفناء في المطلق – الله–"(بوداود، 2006، صفحة 19) وإن الرواية هنا لتتناص مع السيرة النبوية المباركة التي نقرأ فيها عزلة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وابتعاده عن عادات الناس الفاسدة استعدادا لتلقي نور الله ووحيه فهل كان –الهاشمي– وهنا لا تخفى علينا دلالة الاسم، فكثيرا ما يشار به إلى سيد المرسلين محمد الهاشمي نسبة إلى بني هاشم– يعد نفسه للانتقال إلى عالم آخر، يسوده النقاء والصلاح والإيمان، هذا الانتقال الذي لا يتم إلا بتزكية النفس والترفع عن كل أنجاس الحياة المادية، لذلك زهد البطل في كل ذلك وهجره هجرة مطلقة، وأسلم عنانه لشيخه الشيلي الذي سيعلمه طريق التصوف.

4–2–البطل المتدين الرباني: لعل من الجماليات الموضوعية والفنية التي جاءت بها التجربة الروائية الجديدة؛ أخلقة العمل الروائي من خلال إدخال القيم الدينية والأخلاقية، في مسار السرد كهدف أسمى تدافع عنه شخصية البطل في العمل الروائي، على خلاف التجربة الواقعية التي استبعدت هذا الجانب، على اعتبار أن كل إشارة إليه تعد من باب الأفكار الرجعية، التي يجب التخلي عنها،بل محاربتها أحيانا تحت دعوى التقدمية والتحرر،وهذا يتضح في رواية سفر السالكين التي جعلت من بطلها،شخصية متدينة محبة لرجال الدين متبعة لهم، خاصة بعد أن غاص بطل الرواية في تجربته الصوفية، فصارت خطابات الشخصية تنبثق من روح متدينة عارفة بقضايا الشرع مسلمة لقضاء الله وقدره، لها نزعة إنسانية دينية تسعى لحب الآخرين والرغبة في إنقاذهم من ضلالاتهم لتكون نجاتهم، فهاهو بطل الرواية الهاشمي يزور صديقا في المستشفى ليحثه على الصبر والإيمان "كان بين يدي المصحف الشريف حين دخل الحاج العربي الشيلي والهاشمي المشلح، الغرفة التي خصصت لي بمستشفى وهران الجامعي، احتضنني الرجل الأسمر وهو يدعو الله بأن يعجل بشفائي، ثم جلس الرجلان بجانبي على حافة السرير، وراحا ينصحاني بالصبر، وتذكيري بسور قرآنية تتحدث عن القضاء والقدر، وحين تكلمنا عن وهران تدخل الهاشمي معرفا بمناقب سيدي الهوا ري الولي الصالح، ثم قال سنزور ضريحه اليوم ..سندعو لك بالشفاء إن شاء الله"(مفلاح، 2014، صفحة 91)، وبغض النظر عن طبيعة الرواية الصوفية فإن الرواية تقدم لنا الشخصية المتدينة كانعكاس للشخصية الجزائرية ذات التدين الفطري البعيد عن التعصب أو التطرف أو التقعر، وإن كان ذلك نابع من توجه البطل الصوفي وتوسعه في خطابه المنبثق من الدين، وكأن الرواية وجدت في الخطاب الصوفي ببعده الديني خزانا

للتعبير، "حيث يلاحظ على الرواية العربية بأن الانجذاب إلى اللغة والقيم الصوفية – الدينية– بدأ مبكرا ففي رواية اللص والكلاب لنجيب محفوظ، نجد أن السارد يحاول ملامسة تلك اللغة"(بوداود، 2006، صفحة 22)،كل ذلك ليكون البطل الصوفي منغرسا في العمق الشعبي ومعبرا عن ذلك الارتباط الوثيق بين المتصوفة وبقية أفراد الأمة.

4-3- البطل المتعلق بعالم الملكوت:البطل في رواية سفر السالكين يبدو منفصلا عن المجموع، فكريا وجسديا منذ بداية الرواية، فه قد اختار طريق العزلة والتغرب عن الآخر، كنوع من الاحتجاج على فساد الحياة العامة، وإذا كان البطل في الرواية بصفة عامة يعمل على تغيير الواقع قدر المستطاع، ويسعى من أجل ذلك إلى مجالسة الناس ومجادلتهم لإقناعهم بأفكاره التغييرية والإصلاحية، فهو من هذه الناحية تجسيدا للدنيوي النافع على اعتبار أنه يجسد صوت الفكر والثقافة والعلم،" وليس ببعيد عنا ما فعله الروائيون ذوو العقائد السياسية من نقل الصفات التي يرونها صحيحة، في الواقع الخارجي إلى شخصيات رواياتهم في نوع من الإسقاط يرضي نزوعهم الأيديولوجي"(روحي الفيصل، 2003، صفحة 20)، لكن الهاشمي المشلح يختار طريق أخرى هي البحث عن عالم الملكوت والسكينة في عوالم الغيب والكمال والنقاء والصفاء، مكتفيا بزيارة الأضرحة والأولياء بعيدا عن حركة المجتمع واضطرابه، ولعله في ذلك يجسد النزعة الجديدة للمثقف العربي الذي استقال من وظيفته الطليعية، وغرق في الذاتية والعزلة بعيدا عن هموم المجتمع، لقد صار الخلاص الفردي هو ما يشغل بال المثقف بعد أن كان يبحث عن الخلاص الجماعي، وفي حلم الهاشمي المشلح ما يدل على ذلك،"رأيت في المنام ليلة الجمعة مناما رويته على المقدم الذي قال لي بمحبة وعطف؛ أبشر يا الغليزاني رأيت سيدي سعيد المنداسي وهو يلقي قصيدته (العقيقة)، ثم أخرج ورقة من جيب جلابته، وسلمها لي قائلا أنشر القصيدة شعرت بأنني شفيت من كل العلل النفسية وأنا أستمع إلى المقدم"(مفلاح، 2014، صفحة 98)ليعلنها صراحة أن أمر البشر لم يعد يعنيه إنما يعنيه حقيقة هو معرفة الله والذوبان في حبه وبلوغ مرضاته وملكوته حيث الصفاء والنقاء والطهارة حيث الخلود،" نعم أنا الآن أكثر وحدة ولكن هذا الأمر يسعدني، فالعزلة تحيي القلب أيضا وتنقيه من كل دنس، أبعدتني عن مخالطة الخلق وأرشدتني إلى طريق المحبة، لا شيء اليوم أصبح يخيفني في هذه الحياة التافهة"(مفلاح، 2014، صفحة 103)

لينتهي به الأمر وقد تحول إلى درويش من الدراويش، يسيح في الأرض متبعا أثر الأولياء والصالحين، راجيا أن يناله قبس منهم فينجو " دخلت غابات ودواوير وقرى كثيرة اعترض طريقي رجال وأطفال، وعرضوا علي الماء واللبن والخبز والقهوة والخبيز، ونبحت في كلاب شرسة كما صادفت طيورا وحيوانات كثيرة، لم أشعر بأي خوف، جريت خلف هؤلاء الشيوخ لمباركين عرفت أنهم من الرجال الذين أحبهم، قررت أن لا أتراجع حتى ألتقي بهم، ..جريت

خلفهم حتى طرت صرت عصفورا مغردا في سماء فسيحة صافية، ..أنا الآن هنا أراهم ..أراهم ..أراهم فقط، فوداعا يا أحبتي ..وداعا"(مفلاح، 2014، صفحة 107)، إنه مفهوم جديد للبطولة حيث الانشغال بإصلاح الذات، والبحث عن السكينة الروحية بعيدا عن كل هموم الحياة التي صارت تافهة في نظر البطل، فهل يمكن اعتبار ذلك موقفا من المثقف أراد فيه راحته وسعادته، بعد أن أدرك أنه أضعف من أن يقف في وجه التيارات الجارفة للفساد في البلاد وفي نفوس العباد وإنا لا ندري هل هذا الغياب يعد انبعاثا جديدا لحياة أكثر قوة وثباتا، أم أنه غياب المهزوم الهارب من المواجهة، وإن هذا ليذكرنا بغياب أبو هريرة في رواية (حدث أبو هريرة قال) للكاتب التونسي **محمود المسعدي**، التي رأى فيها الباحث ثامر الغزي "النهاية – هنا– تجسيدا لمقولة المسعدي الحياة كون واستحالة ومأساة، وإذا النهاية انفتاح وبعث وولادة"(الغزي، 2007، صفحة 22).

4–4– البطل المتحول:البطل في الرواية الصوفية بطل متحول ومتقلب المزاج، منذ بداية النص؛ ويبدو أن مفهوم الرياضة الروحية والارتقاء من مرحلة إلى مرحلة في التيار الصوفي، قد أثر في بنية الشخصية الروائية الصوفية، ذلك أن كل صوفي لابد وأن يمر على مرحلة الحيرة فالمريد ثم العارف إلى غير ذلك من هذه المراحل،وشخصية الهاشمي المشلح بطل هذه الرواية – سفر السالكين– بنيت على مفهوم التحول المستمر، من المادي المحض إلى الروحي المحض، لقد كانت شخصية البطل مرتبطة أشد الإرتباط بكل ما هو مادي في الحياة اليومية، بداية بالأسرة ومتطلباتها، مرورا بالوظيفة ومقتضياتها، ووصولا إلى علاقاته الاجتماعية بكل أنواعها الصادق منها والمفتعل، وهي مرحلة أتت عل أجمل أيام البطل وسلبته حريته بل وكرامته كذلك، لذلك نقم على هذه المرحلة وأعلن الحرب ضدها وضد كل تجلياتها، وقد ارتبطت عنده بالبؤس والمعاناة مثل فقد الأب، معاناة الأم،اضطراره للعمل وانقطاعه عن الدراسة، تخلي الأصدقاء عنه لعدم قضاء مصالحهم،"لا أخفي سرا إذا قلت بأنني كرهت أقاربي وأصدقائي..قبل اليوم الذي أرخت فيه لحياتي الجديدة ..رأيته رأيت الوحش الذي كاد يقضي علي، لم أنس ذلك الحادث المشؤوم..تخليت عن الوظيفة التي اعتقدت أنها كانتعالمي الوحيد، وهي في الحقيقة كانت سجنا خطيرا، دفنت فيه كل أحلامي للأسف، لم أتفطن إلى هذه المأساة إلا بعد إحالتي إلى التقاعد"(مفلاح، 2014، الصفحات 08-11)كانت هذه هي مرحلة حيرة البطل، خاصة وأن عالمه الذي كان مطمئنا انهار فجأة ووجد نفسه وحيدا مأزوما،وهنا بدأ رحلة التحول والبحث،فكانت لأغنية البدوية تطربه وتملأ فراغه لكنه لم يستمر في هذا الطريق وكأنه لم يجد راحته في هذا العالم الفني، ليشكل لقاءه بالشيخ العربي الشيلي رجل الطرق والتصوف، مرحلة جديدة من حياته مثلت مرحلة المريد،حيث بدأ يتلمس طريقه إلى معرفة الله والطرق الصوفية والتقرب من الحلقات

وعالم الدروشة، وبات يرى أن هذا العالم الوحيد الذي يليق بالإنسان سلوكه إن أراد السعادة الحقيقية،" بصافي المايدي لا يعلم شيئا عن الحياة السعيدة التي صرت أعيشها منذ دخولي هذا العالم السحري"(مفلاح، 2014، صفحة 96).

لتأتي مرحلة التحول الأخيرة في حياة البطل، حين التحق بركب السياحة الصوفية، منقطعا عن عالم الناس متفرغا للعبادة والذكر وزيارة الصالحين، حتى صار منهم ووصل إلى درجة "الفناء فيهم"(مفلاح، 2014، صفحة 107)،والملاحظ أن رواية سفر السالكين قد حرصت على رصد مراحل التحول عند البطل، دون أن تغفل بعض القضايا المرافقة كاختيار الاسم المناسب، الذي يتماهى مع الاسم التراثي للرسول محمد صلى الله عليه وسلم، إمعانا في إعطاء البطل صفة التدين والانتماء إلى التدين والمتدينين، ليشكل بذلك في نظر السارد امتدادا للإرث الديني الإسلامي، ورفض القيم الاجتماعية الجديدة التي صارت أقرب إلى الهمجية منها إلى الإنسانية، وخاصة بعد أن عم الفساد وصار قانونا يحكم الجميع، مع انتشار الهواتف الذكية وموقع التواصل الاجتماعي، وما أحدثته من تمزق وفساد في المجتمع، كل ذلك كان محل رفض من البطل الصوفي ليعود إلى المنابع الأولى باحثا عن النقاء والصفاء والحب الإلهي، " وما لنا لا نذهب إلى أن التعبير الأدبي، حامل ثمار المخيلة البشرية وأحلام الإنسان عبر تاريخها المديد، لهو قبل كل شيء وعاء للمثل ومعبر للأخلاق والقيم والأحاسيس الموصوفة بالنبل والتقوى"(المديني، 2012، صفحة 31)

5- الزمن الصوفيفي رواية سفر السالكين: تحاول الرواية الصوفية كتجربة جديدة في عالم الكتابة الروائية التأسيس لزمنها الخاص، الذي يرفض الزمن الكرونولوجي المهيمن على الرواية الواقعية، وهي بذلك تؤسس لزمنها المتفاعل مع ذات الشخصية المتصوفة، وحالاتها المختلفة والمتحولة، في عزلتها وفي أحلامها وأسفارها الزمنية واللازمنية، المتجاوزة للواقع والغارقة في الغيبيات " إن أبرز ما ما يميز زمن الرواية الجديدة هو تخلصه من الزمن التاريخي، واللحاق- وبطرق رمزية- باللحظات الأولية للوجود لأجل معانقة المطلق والسعي لاكتشاف الحقيقة، إن العودة إلى الزمن المقدس، الذي لا يقاس بالديمومة هو أحد مظاهر الحضور الصوفي في الرواية الجديدة"(أدادا)

5-1- زمن المغامرة الصوفية: بدأت رواية سفر السالكين منفتحة على زمنين مختلفين زمن ماضي، يشكل يوميات البطل في ظل خضوعه للإكراهات اليومية ، التي سلبته حريته وأيامه الجميلة، بما في ذلك الوظيفة وطلبات الأسرة التي لا تنتهي، في حين ينفتح الزمن الحاضر على زمن المغامرة الصوفية وبداية تجلي التوجه الصوفي للبطل، حيث يحدث القطيعة مع كل ممارسات الزمن الماضي، ليذهب للبحث عن طقوس جديدة تكون سلوانا له على ما

ضاع من حياته هباء، " بدا لي الهاشمي المشلح غارقا في عالمه الخاص ظل يحرك يمناه تحت عباءته البيضاء التي لم يتخل عنها منذ أشهر"(مفلاح، 2014، صفحة 76)

لقد كان ذلك إحساس كل جماعة الهاشمي وأصدقائه بعد اقتحام عالم التصوف،فلم يعد يحفل بالزمن هل هو في سيرورة أم في ثبات،ويكفيه أن يحضر جلسة من جلسات الشطح الصوفي كي يغوص في مغامرته الصوفية، حيث ينتفي الزمن ولا يبقى إلا التوحد بالمعشوق تحت وقع الذكر الخالد "الله..الله حي الله هو الدايم"(مفلاح، 2014، صفحة 67)

5-2- **زمن الحضور في الغياب**:يتميز هذا الزمن عند البطل الصوفي بالتداخل الشديد، ففي الوقت الذي يكون البطل حاضرا بين الناس يكون حاضرا بدهنه وروحه في عوالم أخرى، هي أبعد ما تكون عن عالم الناس ومشاغلهم، إنه زمن المفارقات العجيبة حيث يجسد هذا الزمن الغياب عن الواقع المادي، وقد يتجسد ذلك على شكل خلوة أو على شكل حلم كما نجد في نهاية الرواية، من خلال حلم الهاشمي الذي نقله من زمن إلى زمن، ومن هيئة إلى أخرى " قررت ألا أتراجع حتى ألتقي بهم إنهم يريدون اختبار إرادتي، صحت يا رجال الله تردد صوت صرختي في جبال الظهرة السامقة تبعتهم ..جريت خلفهم وجريت حتى طرت صرت عصفورا مغردا في سماء صافية، شعرت بسعادة غامرة وأنا أسبح في الفضاء الجديد الذي أحببت البقاء فيه رافضا العودة إلى هناك إلى دنياهم إلى أوهامهم أنا الآن هنا أراهم ..أراهم فقط فوداعا يا أحبتي وداعا"(مفلاح، 2014، الصفحات 106-107)

6- **الفضاء الصوفي**:تنقسم الفضاءات في رواية سفر السالكين بين فضاءات حميمة وأخرى طاردة، ذلك حسب حركة البطل فيها فنجد البطل ينفر من الأماكن التي يألفها الناس مثل البيت وأماكن التجمعات، في حين صار يميل إلى فضاءات العزلة ، وقد عرفت الرواية مجموعة من الفضاءات التي أثثت السرد في النص مثل الأضرحة التي كانت محط زيارات البطل والتي يجد فيها كل راحته، فيأنس بأهلها من الموتى ويتذكر مناقبهم وخصالهم وأياديهم البيضاء على أهل العرفان والمحبة "حيرني سلوك الهاشمي المشلح منذ اليوم الذي رافق فيه الحاج العربي الشيلي إلى زاوية حي العبادة، ثم صار ينتقل من حضرة صوفية إلى أخرى، ومن زيارة ضريح إلى آخر"(مفلاح، 2014، صفحة 37).

إن ما يشد البطل إلى هذه الفضاءات هو بعدها الروحي،"قضيت سبعة أيام في مسجد سيدي بومدين، كنت كل صباح أزور ضريح الولي الصالح أشم عطر قبره الزكي، وأتأمل رسوم قبته المدهشة كانت عيناي تفيض من الدمع حين أقبل القماش الأخضر الذي يغطي القبر المجلل بالأسرار والنوار الربانية..كنت سعيدا ..يا لها من حلاوة لم يتذوقها الناس الذين غرتهم الدنيا الفانية فغرقوا في أوحالها النتنة"(مفلاح، 2014، صفحة 97) واعتقاده الجازم بأنها تتضمن أسرارا إلهية تنفع زائرها،كما أنها تمكنه من التوحد مع بقية الرفقاء من المتصوفة والمشايخ، لممارسة الطقوس

الصوفية من شطح وذكر، يبلغ درجة الدروشة في الكثير من الأحيان فيغيب الجسد وتبقى الروح سابحة في ملكوت الله الواحد، إن الفضاء الصوفي في رواية سفر السالكين فضاء ثابت ماديا حيث يتجسد في الزوايا والأضرحة، لكنه فضاء ينفتح دلاليا ليحيل على المطلق والمقدس والطاهر والخالد، لذلك يغيب الفضاء المحدد في نهاية الرواية؛ لتبقى دلالاته الروحية آخذة بتلابيب البطل و شاغلة له عما يحيط به من ماديات، لذلك نراه يؤثر البقاء في هذا الفضاء المطلق "رافضا العودة إلى فضاء الواقع"(مفلاح، 2014، صفحة 107).

7. خاتمة: خلاصة القول إن رواية سفر السالكين رواية جزائري معاصرة، تناولت تجربة جديدة وتفاعلت مع البعد الصوفي في المجتمع الجزائري، لذلك تعد نقطة تحول في إبداعات محمد مفلاح الروائية، وإطلالة من إطلالاته المعاصرة على فضاء التجريب والتجديد. وقد حاولت الرواية أن توظف الكثير من الجماليات المختلفة عن الروايات العادية، وهي جماليات خاصة فرضتها طبيعة الرواية وموضوعها، ألا وهو التجربة الصوفية، فكان البطل الصوفي وتحولاته من هذه الجماليات، ذلك أن الحالات النفسية والطقسية للبطل أثرت في بنية الشخصية الروائية.

وكان الزمن الصوفي الذي جمع بين الغياب والحضور، وجمع بين الزمن المحدد والزمن المطلق حيث اللازمن ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للفضاء الصوفي في الرواية، حيث احتفل النص بالفضاء المقدس والخالد، الذي تقبع فيه الأضرحة المباركة لأولياء الله الصالحين لينتهي بها الأمر إلى الفضاء المطلق الذي ينتفي فيه الحضور الجسدي وتبقى الروح سابحة في ملكوت الله،.

وقد حاولت رواية سفر السالكين أن تتجاوز المفهوم الكلاسيكي للرواية من خلال تناصها مع نصوص مختلفة، حققت من خلالها إخلالا واضحا بالبنية التقليدية للرواية، وأعلنت رفضها لمنطق الجنس النقي، كإمعان من الكاتب في ممارسة التجريب والتجديد في الرواية، خاصة بعد أن اتضحت القطيعة مع الكتابة الروائية الواقعية في أعماله الأخيرة.

إن رواية سفر السالكين رغم أنها رواية صوفية، اهتمت بالتجربة الذاتية للبطل الصوفي، إلا أنها لم تغفل نقد الواقع المعيش وما استشرى فيه من فساد، سواء في السلطة التي استباحت كل المحظورات، أو في الناس الذين تخلوا عن كل القيم الجميلة، وارتهنوا لكل وافد وأعجبوا بكل جديد وتبنوه، حتى وإن كان ضارا لدينهم ودنياهم.

8. قائمة المراجع:

المؤلفات:

ابن خلدون،(2003)، *المقدمة*، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت لبنان.

أحمد المديني، (2012). *تحولات النوع في الرواية العربية بين مغرب ومشرق*، منشورات أحمد المديني. الرباط.

الزواوي بغورة، (2003). *الفلسفة و اللغة*. الأردن: دار الشرق.

ثناء أنس الوجود، (2000). تأليف *قراءات نقدية في القصة المعاصرة*. القاهرة: دار قباء.

سمير السعيدي، (1988). *الحسن بن منصور الحلاج*. دمشق: دار علاء الدين ،.

سمير روحي الفيصل. (2003). *الرواية العربية البناء والرؤيا مقارنة نقدية*. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.

عبد الحكيم حسان. (2003). *التصوف في الشعر العربي نشأته وتطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري*القاهرة: مكتبة الآداب..

محمد أبو ريان. (د،ت). تأليف *الحركة الصوفية في الإسلام* . مصر: دار المعرفة الجامعية.

محمد عبد المنعم خفاجي. (1938). تأليف *الأدب في التراث الصوفي*. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر.

محمد مفلاح. (2014). تأليف *سفر السالكين* . أسيوط: دار الكوثر للنشر والتوزيع.

ميخائيل باختين. (2009). تأليف *الخطاب الروائي* (محمد برادة، المترجمون،). القاهرة: دار رؤية للنشر والتوزيع.

الأطروحات:

فتيحة غزالي. (2018)، *تجليات الصوفية في التجربة الروائية المعاصرة لسلام أحمد إدريسو،أطروحة دكتوراه،مخطوط* قسم اللغة والأدب العربي جامعة محمد خيضر بسكرة.الجزائر:

المقالات:

ثامر الغزي. (2007). دلالة النهاية في رواية حدث أبو هريرة قال لمحمود المسعدي. *مجلة الحياة الثقافية*. غ

ذناني بوداود. (2006). اللغة الصوفية عند جمال الغيطاني . *مجلة حوليات التراث*.

منير حافظ. (كانون الأول, 2006). أشكال الدراما الشعائرية. *مجلة المعرفة*

حسين عجمية. (شباط, 2020). اللغة بعمقها التفاعلي مرتبطة بالإرث البشري. *مجلة الموقف الأدبي* ،

مواقع الانترنيت:اسم الكاتب (السنة) ، العنوان الكامل للملف، ذكر الموقع بالتفصيل:

تاريخ التصوف. (بلا تاريخ). تاريخ الاسترداد 06 10, 2020، من موقع المعرفة: https//m.mara.org

محمد أدادا. (بلا تاريخ). *الصوفي في الروائي*. تاريخ الاسترداد 25 10, 2020، من http.//wwwaljabriabed.com

محمد عبد الحميد. (بلا تاريخ). *قراءة في رواية سفر السالكين لمحمد مفلاح*. تاريخ الاسترداد 25 10, 2020، من صحيفة الوطن الجزائري: http.//wwwelwatandz.com ي

نورة عقاق. (2014). *اللغة الصوفية في رواية تلك المحبة للحبيب السايح*. تاريخ الاسترداد 25 10, 2020، من Les ouvrages du CRASC: https.//ouvrages.crascdz

محمد السيد. (12 مايو, 2020). *كيف تحصل على الراحة النفسية* . تاريخ الاسترداد 20 10, 2020، من موضوع: http//mawdoo3.com

ملحق:**محمد مفلاح** من رواد الكتابة الروائية الجزائرية المعاصرة، ومن الكتاب الذين أسسوا للرواية الواقعية الجزائرية التي حاولت معالجة الواقع الجزائري في مراحل مختلفة من تطوره، ومسايرة التحولات والهزات العنيفة التي عرفها المجتمع خاصة مع حلول الأزمة الوطنية، التي عصفت بالحلم الاشتراكي الوطني، "وهو روائي وباحث وقاص جزائري من مواليد **28ديسمبر 1953م** بالغرب الجزائري، أنجز العديد من الأعمال الإبداعية في مجال الرواية (14)